تربيتنا المدرسية

(تابع ما قبلهُ)

يدخل التلميذ الى المدرسة فيبتدئ بالذاكرة في تعلُّم الحروف الهجائية ثم يرتقي الى الجغرافية مثلاً فيلجأ الى الذاكرة ثم يأتي الى اللغة والاعتماد فيها على الذاكرة ثم يأتي الى الحساب وربما عوَّل على الذاكرة ايضاً في تعلم القواعد . اقول ذلك ايها السادة وانا لست من القائلين بأهمال الذاكرة وما انا بالذي يجهل فوائدها ومقدار ما يتعلق بها مباشرة من العلوم ولكنني من المنكرين اشد الانكار لهذه الطريقة التي لا شأن فيها لشيء من القوى العاقلة الاَّ الذاكرة . وعندي ان الذي شجع المعلمين على ذلك أمران الاول سهولة ممارستها وقرب تناولها والثاني انحطاط الهيئة الاجتماعية عندنا حتى كان كل من ينتظرهُ الوالد من ولده ان يردد امامهُ بعض الالفاظ او الاشعار وهو لا يفهمها . واذا كان يحسن ترديد بعض الحروف الاعجمية او كلمات او عبارات بلغة اجنبية لا يعرف لها الوالد معنى فذلك منتهى الاماني فيأخذ الوالد يمدح المدرسة ويعجب بمهارة معلميها كما جمعهُ بقومهِ نادٍ . فلما رأت المدارس ذلك جرت بالطبع على ما يوافق رأي الاهالي . والمدارس تتأثر كثيراً بالرأي العام — ولا اسمح لنفسي بالبحث في ما كان من تأثير هذه الطريقة في اخماد العقول وما كان من نتيجتها في وقوف الشرقي عند حد التقليد باهمال قوة الملاحظة فيهِ مع ان تنويتها واعلاءها غاية الغايات في العلم . ولا اكتمكم ايها السادة اني اتألم كثيراً عند ذكر هذا الامر الذي كان سر تأخرنا . ولو سعى المعلمون الذين عهد اليهم امر تعليمنا ابتداء الى اكتشاف ما فينا من المواهب وبادروا الى تنبيه القوى العاقلة فينا لكنا غير ما نحن الآن . علمونا . ماذا علمونا . حشوا ذاكرتنا بعلوم لا تنفعنا سيما في معترك هذه الحياة ولا تشفع . اجهدوا حافظتنا اخمدوا قوة الملاحظة فينا . اقول ذلك ولا اوهم لانهم لم يعملوا ما عملوا عن قصد ولان العلم الذي كان قد وصل الى بلادنا حينئذٍ لم يتوصل الى اكتشاف هذه المعارف . فان مرنا نحن سيما في هذا الطريق بعد الذي جاءنا من العلم فلا عذر لنا

اكتفي بما ذكر والتقدم الى تربيتنا الادبية وهي الاهم فابدي ما لي عليها

لم يبقَ واحد من العلماء الاَّ صرَّح ان التربية الادبية اهم انواع التربية واولاها بالالتفات فقد قال ادورد ثرنج « الخلق الشريف هو الذي يجب ان يرمي اليهِ المعلم في مدرسته »

وقال السر ولترسكوت « يسهل علينا ان نعتبر دعوتنا الاعتبار الصحيح وان ننظر الى مركزنا النظر الصائب ان لم نعتقد في نفوسنا ان كل شيء عاثل ضوء القمر الضئيل بالنسبة الى تهذيب القلب الذي يشبه نور الشمس الباهر » . ويقال ان المرحومة الملكة فكتوريا عهدت الى قرينها البرنس البرت ان يعين الامر الذي يجب ان تهدى لاجله جائزة رامت تقديمها لاحدى المدارس . فجعل البرنس تلك الجائزة للتلميذ الذي يكون اشرف اخلاقاً من جميع رفاقه . ونقلت « الجامعة » عن جول سيمون قوله « ليس من وظيفة المدرسة ان تعلم العلوم فقط فان بث روح الفضيلة والاقدام من اخص واجبات المدرسة »

ما هو مركز مدارسنا من هذه الجهة ايها السادة . اقول ولا اخشى في الحق لومة لائم ان مدارسنا تعد من هذا القبيل من اكثر المدارس انتصاراً للفضيلة ومن اشدها حرصاً على آداب الاولاد ولا يدع قائل لهذه الغاية وضعت . ولكني وان قلت هذا فما ابرئ نفسي وغيري من بعض اغلاط خصوصاً في امر سياسة المدرسة تعكس علينا النتيجة الادبية التي نتوخاها وربما افسدت علينا عملنا واسمحوا لي ان اذكر بعضاً منها وحبذا لو عدلنا عنها

من الامور المسلم بها لدى كل عاقل ان الاولاد يغلطون ويخطئون ويسيئون التصرف وان من الواجب حينئذٍ ردعهم وتأديبهم لئلا يتمادوا في مثل تلك الامور لان الاعمال اذا استمر المرء عليها اصبحت عوائد والعوائد اذا طال العهد بها وتمت صاحبها بسمات لا تنفك عنهُ مدى الحياة . اذن غاية التأديب كف الولد عن التمادي في الشر لا الاضرار بهِ في جسدهِ ولا في اخلاقهِ . اذن تمنع القصاصات التي تؤول الى تصغير نفوس الاولاد لانها تضر ضرراً بليغاً في مستقبل الحياة . ومتى كان الرجل صغير النفس حقيرها فلا يكبر عليهِ اتيان اعظم المنكرات واكبر الرذائل . افيليق بنا ان نوسل الطلبة الى مثل هذه النتيجة لاجل غلطة صغيرة ربما ارتكبوها جهلاً او عن غير قصد . او تحمد المدرسة على مثل ذلك . أليس من واجب المدرسة الاكبر ان تربي الطلبة على عزة النفس والترفع عن الدنايا والرذائل بلى لعمري فقد قال روزبري صدر انكلترا الاعظم « ان عظمة انكلترا قائمة بمدارسها فان هذه المدارس تعلم العظمة الشخصية والاقدام وهو سر العظمة الحقيقية . وما دامت مدارسنا تعلم هذا التعليم فنحن على ثقة من دوام عظمتنا ومجد مستقبلنا » . وليست هذه افكار الانكليز فقط بل هي افكار الفرنسيين ايضاً فقد قال وزير المعارف في منشور وزعهُ على المدارس « اريد ان تدخلوا في اذهان الطلبة بطرق التشويق والتزيين مبادئ حب الحق والخير والجمال . فان هذه المبادئ تجعل النفس كبيرة سامية » . اذا كان الامر كذلك فما قولكم

بقصاصات الضرب خصوصاً ما تظهر فيهِ القساوة البربرية . لترَ ما قول الانكليز فيها . قال اللورد سنيلد « لا نقدر ان نحكم بالقساوة كبار ابنا ولا صغارهم » وقال جون لوك « ان الاولاد الذين نالهم من التأديب اشدهُ قلما كانوا من الرجال العظام » . قول غريب جداً واغرب منهُ ما قالهُ الس روجرس قسيس السجن المسمى بتوتثيل « ان المجرمين الذين كان تأديبهم بالضرب هم الذين اعيدوا الى السجن مراراً » . قول يدهش العقول ولكنهُ صحيح لان المرء يظل محافظاً على آدابهِ واسمهِ ما دام فيهِ عرق شرف ينبض ولما كان القصاص الوحشي مصغراً للنفس فلا غرو اذا اوصل من يقع عليهِ الى مثل هذه النتيجة .

مررت على احد الصفوف (الفرق) مرة فسمعت المعلم يطلب من ولد صغير ان يأتي و يشحط اذن ولد كبير . ولعل الذي زيَّن للمعلم استعمال ذلك القصاص ظنهُ ان ذلك الولد اكبر من رفيقهِ سناً والصحيح انهُ اطول قامة فيجب ان يكون اوسع منهُ عقلاً واكثر معرفة فادى بهِ غلطهُ هذا الى استعمال ذلك القصاص . وهو مضر من جهتين الاولى ان الولد الطويل ينشأ على صغر النفس والذل والمسكنة وقلة الهمة . والثانية ان هذا القصاص يربي الكبرياء في نفس ذلك القصير القامة و يعودهُ احتقار الغير والتطاول الى ما هو اعلى منهُ

اما القانون الصحيح للتأديب . القانون الذي اثبتهُ ذوو التحقيق فهو ادبوا كما شئتم بحيث تحافظ على كرامة نفس الولد و يكون نوع القصاص من جنس الذنب ونتيجة طبيعية لهُ بحيث يشعر الولد ان ذنبهُ جرَّ عليهِ القصاص لا غضب المعلم او حبتهُ للانتقام . فاذا اساء ولد التصرف في اللعب قضي عليهِ بان يحرَم منهُ وان وسخ احد المدرسة كلف تنظيفها وان سلب احداً شيئاً الزم بالتعويض عنهُ الى غير ذلك . اما اذا استعمل الضرب لكل نوع من الذنوب فينشأ الاولاد خشني الطباع فظي الاخلاق فان القساوة تولد القساوة كما ان اللين يولد اللين . على ان هنالك ضرراً آخر وهو ان الاولاد لا يعودون يتأثرون بالضرب وان انت استعملت القساوة الجأتهم الى الرياء فيصبحون ملائكة في حضورك وشياطين في غيابك

واني ما انسَ لا انسَ حينما كان المعلم يكلف احدنا بالذهاب الى اللوح لعمل الحساب فكان يقف والقلب منهُ واجف والاعصاب ترتجف واذا قال ٣ في ٤ = ٩ فما اسرع ما يادرهُ المعلم بالكف على وجههِ . ارجو ان تقولوا لي ايها السادة ما محل هذا الكف من التعليم وهل صار الولد الآن يقول ٣ في ٤ = ١٢ ام صار بالاولى يقول ١٠٠ او ١٠٠٠ بحسب ضعف الكف وشدتهِ . هذا اذا لم نتشوش قواهُ العاقلة لاسيما اذا كان من ضعيفي الاعصاب وهو غير نادر في مثل هذه الاحوال . انا احسب اليوم اني اذا كلفت احداً

بالوقوف الى اللوح اكون قد منحته مزية على رفاقه اما نحن فكنا نمدها ساعة شؤم حينما كان يصدر امر المعلم لاحدنا بالوقوف حتى كرهنا الحساب والحاسبين . اليست الطريقة في مثل هذه الاحوال بحث المعلم في سبب تلك الغلطة والرجوع بالولد القهقرى بواسطة السؤالات ليكتشف اين مكان الفساد فيصلحه واين موضع الضعف والاعوجاج فيسعى الى تقويمه . ولست بجاهل ان هذا الطريق اوعر مسلكاً من الاول ولكنه الطريق القويم . ولا يزعمن احد مما تقدم اني لا اجيز الضرب كلا وانما له ظروف خصوصية والضابط فيه ان الذنب السيء لا يداوى الا بالقصاص السيء واذا ضرب ولد آخر كان القصاص من جنس الذنب ونتيجة طبيعية له

ما كنت اظن ايها السادة ان الكلام سيطول بي الى هذا الحد فلذلك قبل اختم اود ان اقدم بعض الملاحظات مكتفياً بالتلميح (١) عام تلاميذك التقوى الصحيحة التي هي اساس كل الآداب وكن لهم فيها قدوة صالحة (٢) علمهم فضائل ايجابية ومرنهم عليها وهم في المدرسة مثل مساعدة بعضهم بعضاً ماديًا وعلميًا وايثار المصلحة العامة على المصلحة الخاصة وايثار الغير على النفس (٣) في التأديبات الخفيفة لا تنس ان تصحبها باستيائك منها الى ان يحل محلها فيكون كافيا لتوبيخ الولد وندمه على ما فعل وزجره عنه . ولكن اياك والتطرف اما في اطالة مدة الاستياء فتعود ازالة الاستغناء عن استحسانك فيستوي لديه استحسانك واستياؤك فتقع في اقبح ورطة او في تقصير مدته كما يفعل بعض المعلمين الذين يستاؤون ويرضون في وقت قصير فيسيؤون صنعاً ويندمون ولات ساعة مندم (٤) قلل من الاوامر الصريحة ما امكنك لئلا يكون بينها ما لا يستطاع وكل ما امكنك الحصول عليه بدون امر فليكن كذلك لانه خير للتلاميذ وهو منشط لهم ومهذب لاذواقهم ولا شيء يفرح الانسان مثل ان يعمل عملاً مرضيًا يدانع من نفسه غير مأمور به من سواه — ولكن اذا اضطررت مرة الى الاوامر فاحط بالمسألة من جميع وجوهها زن النتائج بدقة واذا ثبت لديك انك مصيب فاصدر الاوامر وشدد في اجرائها مهما اقتضت من الكلفة واحرص هنا على الثبات والتشديد فان المعلم الذي يهدد كثيراً ولا يفعل شيئاً الذي يشرع في اصدار الاوامر ثم يرجع عنها بعد وقت قصير الذي يعامل الذنب الواحد مرة بالشدة ومرة باللين يحط من قدر نفسه في عيون تلاميذه وعلى الاخص اذا كانوا كباراً ويشجعهم على العصيان ويذخر لنفسه اتعاباً لا تحصى

ترون اذن ايها السادة ان التهذيب الحقيقي ليس بالامر السهل بل هو من اشق الاعمال واشد الوظائف تعباً واجهاداً قال سبنسر « ان الطريقة المخطئة في التهذيب يمكن لاقل

الناس عقلاً ان يمارسها بدون استعداد ولا اهتمام لان الصفعات والكلمات البذيئة يقدر عليها كل واحد حتى احط المتوحشين » . اما اذا شئت ان تتبع الطريقة المثلى الطريقة التي توصلك الى الغاية المطلوبة في هذا العصر عصر النور والمعرفة فعليك ان تستعد لها بالدرس والمطالعة والصبر وضبط النفس . عليك ان تتوقف مرة بعد مرة وتسأل نفسك ما هي النتائج التي تظهر في سن الحداثة وعن اي اعمال في الصغر تنشأ فتقوي ما يوصل الى الحسنة منها وتتلافى السيئة . وقد يقرب الى نفسك السأم من طريق او تلميذ لا تظهر منهُ نتيجة فعليك ان تتدرع بالصبر وسعة الصدر — ثم انهُ عليك ايضاً ان تبصر في اميالك وتميز بين ما هو ناشئ عن ايثار الراحة على التعب او عن محبة السلطة . واذكر ان المهذب يجب ان يكون هو نفسهُ مهذباً ولا يحسن تأديب غيره الاَّ من احسن تأديب نفسهِ وتعود ضبطها حينما يثور ثائرها . وان يتملك عواطفهُ ويزين نفسهُ بالفضائل جميعها . وصف العلامة فرنكي المعلم الحقيقي بقولهِ « هو الذي يعامل تلاميذهُ بالشفقة والحنان كما يعامل الاب الشفوق ابناءهُ فيملك قلوبهم ويكون امامهم مثال الوداعة والمحبة فينالهم باللين والمحبة ما لا ينال بالقساوة والشدة » مثل هذا التهذيب قال رسكن انهُ « يعيد الاولاد بعد وقت قصير الى ذويهم وهم اثمن من اكثر من وزنهم ذهباً »

ايها المعلمون المكرمون

ما هو العمل الذي بين ايديكم وما اكثر الانظار التي تتطلع اليكم والآمال المعلقة بكم . الاَّ ان سعادة الامة وشقاءها متوقفان عليكم فهل شعرتم بسمو مركزكم عند كل عاقل كحذام التربية وعلمها المكين بازمة العقول والعواطف والاخلاق والقابضين على دفة التقدم والارتقاء . وماذا نحن صانعون . هل لنا شهادة ضمير صالح انا مؤتمنون عملنا كما يجب . اعطيت آخر درس لصفي هذه السنة ورجعت وفيما انا راجع تزاحمت الافكار في ذهني فلبثت افكر على هذه الطريقة . كل سنة يمر من تحت ايدينا تلاميذ ربما لا يتفق لنا ان نراهم فيما بعد . وان اجتمعنا بهم فهل يتفق ان نقف بينهم موقف المهذب الناصح فهل رياءهم كما وددنا ان نفعل هل أثرنا فيهم التأثير الصالح الكافي ام خسرنا فرصة لا يمكن ان تعوَّض هاهم سيخرجون الى العالم ويتعرضون لكل نوع من التجارب التي فيهِ فما هي الحصون والقلاع الادبية التي امتناها في نفوسهم التي تكفل لهم حفظ التقوى والآداب يوم تهب عليهم عواصف التجارب والشرات . بل ما هي المبادئ التي تجعلهم مصدر نفع حيثما توجهوا فيجني العالم بفرح ثمرة ما زرعناهُ بالدموع . بمثل هذه الافكار كنت اناجي نفسي . ولا اكتمكم ايها السادة ان

جوابي عن هذه الاسئلة لم يكن كما تروم . وكم وددت لو ابدأ السنة من اولها لاتلافى ما فرط مني من القصور ولكن هيهات . ايها السادة اتمنى ان يكون جوابكم لانفسكم عن هذه الاسئلة افضل من جوابي . ومهما يكن من الامر فاننا محاطون بانظار تراقب اعمالنا وهي تنتظر ما يأتي عنها بفروغ صبر . فمن الجهة الواحدة ترمقنا عين الوطن . قد وصلنا والحمد لله الى عصر يمكننا فيه ان نقول لنا وطن . وغير خاف عنكم ان مستقبل الوطن يتوقف على ابنائه ليس على الشيوخ والكهول منهم الذين سيسيرون في طريق كل حي بل على هؤلاء الاحداث الذين بين ايدينا . ونحن نقدر ان نفعل كثيراً من هذا القبيل ضمن دائرة عملنا . المعلم الحقيقي يعترف من اين تؤكل الكتف ويعرف كيف يفهم الطلبة انهم الجزء الاهم في الوطن وانهم سوف يكونون رجاله ويضع امامهم غاية سامية تختص بصالح الوطن العام ويثير شوقهم الى السعي اليها بعد المدرسة فيكون قد اعد للوطن رجاله الامناء المخلصين . ومن الجهة الاخرى ترمقنا عين الاهالي بنظرها وتقول لسانكم اعز شيء لدي فلذة كبدي وانسان عيني والاهالي تنتظر ان نحفظ جسم الولد وعقله ونفسه وآدابه فكثيراً ما يتربى الولد على فضيلة في البيت ثم يذهب الى المدرسة فيضيعها وربما استبدلها برذيلة . الا يجب علينا ان نتدبر هذا الامر وننظر اليه بعين الاعتبار . ثم ان الانسانية لتنظر الينا من الجهة الاخرى بعين ملؤها الاستعطاف وتقول لا تتغافلوا عن جزء الانسانية الكامنة في الولد الصغير . عاملوه كانسان ذي نفس بشرية وعلموه ان يكون له نصيب في خدمتي وتعزيز شأني وان ينشر صفاتي بين الداني والقاصي وان يكون متسعراً للمبادىء السامية وان يحلي جيده بالآداب الجليلة والصفات التي تميز الانسان عن غيره

والخلاصة ايها السادة اننا مسؤولون امام الله وامام البشر وامام انفسنا عن العمل الذي نمارسه . قال شكسبير « ان الشقاء والسعادة هما نتيجة التربية » . قلنا اذن وفي ايدينا ان نسير هؤلاء الاولاد من اليوم في سبيل السعادة وفي سبيل الفضيلة ولا نخشى عليهم فيما بعد لان من شاب على خلق شاب عليه فيبارك الله والبلاد والاهالي والانسانية وهذه النفوس يوم تدرك مقدار ما بذل في سبيل ترقيها وتنال استحسان ضمائرنا وراحة قلوبنا وما أحلانا الا فاعلين كذلك باذن الله

توفيق زيتق